الفصل الثانى

تنظير النقد الأدبى

نستطيع أن نتساءل فى البداية عما نقصده بالنظرية النقدية؟

فى هذا الصدد يذهب (رينية ويليك Wellek فى كتابة" نظرية الأدب" إلى أن النظرية النقدية هى سائر النظريات النقدية المتعاقبة كما صدرت فى تاريخ النقد. وهذا يعنى أنه لم يركز انتباهه نحو النظرية النقدية ذاتها، وبالتالى لم يحاول التعرف على ملامحها العامة من خلال الكتابات الحديثة أو المعاصرة.

لقد أعلن بارت فى كتابه: "Essai Critique" أن النظرية النقدية أصبحت تعالج بعض القضايا والمشكلات التى طرحتها النظرية الأدبية المعاصرة، وهى قضايا ومشكلات نظرية تتعلق بالمناهج ودراسة الآثار الأدبية أما على نحو بنائى شكلى أو على نحو بنائى دينامى، أو على نحو نقدى نفسى.

وهذا يعنى أنه لا يمكن لنا فهم النظرية النقدية بدون أن نفهم النظرية الأدبية ذاتها. فكلاهما يبدوان فى حالة معينة من الترابط.

فالمتأمل لمقدمات النظرية النقدية الحديثة، يلاحظ أنها قد طرقت فى البداية أبواب نظرية الأدب فلقد اتصل النقد فى القرن التاسع عشر ببعض الاتجاهات النظرية فى الأدب، ولقد تابع فى الاربعينات من القرن الماضى أصحاب النزعات الشكلية فى انجلترا وفرنسا وغيرها وجهات النظر البنائية.

وقد استطاع هذا الاتجاه كغيره أن يساهم فى توجيه النظرية النقدية بصورة معينة،

obeikandi.com

فخضوع الآثار الأدبية لتيار علمى أو فلسفى معين يؤثر فى مفاهيم وفى معايير النقد الأدبى بصورة معينة.

ولقد تابع تين فى القرن الماضى الاتجاه العلمى، ومزج "جولدمان" فى نفس القرن بين الاتجاه الماركسى والاتجاه الوضعى. بينما تابع بارت النزعة التركيبية عند "سوسير" و"بروب".

هذه التيارات او غيرها تشير إلى تعدد الأسس والمعايير الأدبية، وتشير فى الوقت نفسه إلى تعدد الزوايا التى تعالج الأثر الأدبى. فهناك موقف البنائية الدينامية الذى ينظر إلى الأثر باعتباره بناءاً داخلياً متماسكاً، يعبر عن موقف جماعة معينة من حركة التاريخ. وهذا الموقف يعتمد أساسا على نظرية المجال والموقف، وغيرهما من أسس الفيزيولوجيا وعلم النفس، وعلم الاجتماع المعاصر. وهناك موقف آخر يعالج الأثر من زاوية عنصرى الشكل واللغة على ضوء العلاقة بين اللغة والمنطق الشكلى وهناك موقف ثالث يعالج الأثر فى ضوء الانطباعات الفردية وقراءة العلامات قراءة حرة.

هذه المواقف المتعددة والمختلفة فى درجة الموضوعية نراها متداخلة فى كيان النظرية النقدية، كما نراها تشكل صراعا فى دراسة الأثر نتيجة تعدد النظريات والمواقف.

ويستند الموقف الأول إلى النظرة الكلية للأثر ومحاولة ربط بنياته بالبنيات الكلية للمجتمع. أما الموقف الثانى فيستند إلى مبدأ العزل التجريبى.

ويعالج الموقف الأول الأثر وصلته بالمجتمع من زاوية البناء والمضمون، ويوجه الباحث أو الناقد اهتمامه نحو البحث عن الخصائص العامة لبنية الأثر والخصائص العامة لبنية المجتمع، ويميل هذا الموقف نحو الأخذ بفكرة الوظيفة، كما يتجه نحو دراسة العلاقات البنائية.

أما الموقف الثانى، فيعالج الاثر الأدبى على أنه أجزاء معزولة، ويهدف إلى

فهـم شكل الأثر باعتباره نمطا بنائيا مستقلا عن مضمونه، وعن كافة العناصر الخارجه عنه أما الموقف الثالث فيعالج الأثر بإعتباره علامات يفسرها القارىء وفق مقاييسه الشخصية.

وبإدخال مبادىء النقد التفكيكى ونظرية البنائية الدينامية، والبنائية الشكلية والنظرية السيكولوجية إلى جانب مساهمات الميتافيزيقا والفلسفة فى أثراء وإنماء القضايا النظرية النقدية، دخل النقد الأدبى مرحلة تعدد التفاسير، الأمر الذى جعل "ريكور" ينبه الأذهان إلى تلك الصراعات القائمة داخل إطار النظرية النقدية، نظرا لتعدد المداخل إليها من مختلف مجالات العلوم الإنسانية والفلسفية مما أدى إلى تراكم المبادئ والأسس النظرية.

وفى هذا الصدد يمكننا أن نتساءل عن تعدد المداخل النظرية للنقد، وهل هذا التعدد يجعلنا نتصور أن النقد قد عثر على ما كان ينشده حين يستند إلى أرضية متعددة المداخل؟

لا شك أن النقد قد عثر على أسس ومبادئ جديدة كان فى حاجة ضرورية إليها ليؤسس الجوانب النظرية والامبريقية التى بدونها لا تتحقق الميتودولوجية للنقد. ومن البدهى أن ذلك لا يتحقق إلا إذا استندت النظرية النقدية إلى بعض المسلمات Postulats والفروض Hypotheses ذلك من أجل توجيه الدراسات النقدية عامة، والدراسات التجريبية خاصة. ويمكن أن يتحقق ذلك فى ظل الجهود التى تبذل الآن لجعل النقد الأدبى علما، يستند إلى مجموعة من القوانين والتعميمات. فالبنائية الشكلية والبنائية الدينامية قد استطاعت أن تمد النظرية النقدية بعدد من الفروض والمسلمات. هذا إلى جانب الاستناد إلى مناهج الملاحظة الشائعة فى ميدان العلوم الإنسانية والتجريبية وفى هذا الصدد يمكن أن نتساءل أيضا: هل يمكن للنقد الأدبى أن يضع إطارا نظريا عاما لدراسة الآثار الأدبية؟

نستطيع أن نجيب على هذا السؤال بالإيجاب لو كان بإمكان النقد الأدبى أن

يعالج الظواهر الأدبية فى ظل مناهج الفروض، ليصل بعد اختبارها إلى عدد من التعميمات، ثم يحاول صياغتها صياغة علمية دقيقة. وحين يبلغ النقد الأدبى هذه الدرجة العلمية، وحين يتيسر له إمكان تطبيق المناهج الوضعية، لا ستطاع أن يشكل لنفسه "نظرية نقدية عامة". ولكن ما يشاهد فى الواقع الأدبى الراهن يؤكد لنا أن تشكيل نظرية نقدية عامة، أمر مشكوك فيه من وجهة النظر الميتودولوجية، كما أن امكان قيام قوانين وتعميمات ذات صيغة علمية فى ميدان النقد الأدبى، أمر لا يمكن تحقيقه نظرا لأن الظاهرة الأدبية ليست ذات طبيعة متجانسة من جهة، وليست ذات عناصر ثابتة من جهة أخرى.

٢ـ اشكاليه التنظير:

لم نقصد بعبارة "تنظير النقد" أن نجرى عملية عرض تاريخى لمختلف النظريات النقدية كما ظهرت فى تاريخ النقد ذاته، وإنما قصدنا بهذه العبارة أن نتناول مختلف القضايا النظرية والمنهجية فى النقد المعاصر.

إن فهم نظرية النقد، أو محاولة تنظير ما يظهر فى الواقع الأدبى، أو ما يطرأ على مجال الإبداع الأدبى من ظواهر ونظم وعلاقات، يفرض علينا الرجوع إلى المفاهيم النظرية والفروض الأدبية التى وردت أصلا فى قضايا النقد المعاصر.

إن المرحلة التجريبية التى تمر بها نظرية النقد الراهنة تعتمد على عدد من المسائل النظرية، إلى جانب عدد من الفروض التى توجه الباحث أو الناقد فى عمله، وهذا يعنى أن الدراسات التطبيقية للأدب تصبح ناقصة إذا لم تستند إلى عدد من القضايا والفروض الصادرة عن النظرية النقدية.

لقد أعلن "بيكار" Picar فى كتابه المسمى "نقد جديد أم خدعة جديدة؟" أن هناك أسباب متعددة تجعل من النظرية النقدية المعاصرة مجالا لا يتفق مع محكات العلم ومعاييره الوضعية منها أن أحكام النظرية النقدية ليست من قبيل الأحكام الكلية العامة، هذا إلى جانب أن النظرية النقدية ذاتها تواجه مشكلة خاصة تتعلق

obeikandl.com

بالصياغة والرموز، والقوالب اللفظية، وهى مشكلة تضعف من تحقيق الموضوعية التامة الشائعة فى ميدان العلوم الإنسانية. فالمصطلحات والمفاهيم الراهنة لم تتوحد بعد لتصبح كسائر مفاهيم العلوم الإنسانية، فالمشاهدة العابرة لكثير من المصطلحات الشائعة فى الكتابات المعاصرة نراها غامضة ومضطربة. فالملاحظ مثلا أنه لا يوجد اتفاق حول ماهية "البنية" Structure أو النسق System أو غيرهما من الألفاظ والمصطلحات الحديثة. ومشكلة عدم توحيد المصطلحات والمفاهيم تجعل النظرية النقدية تفتقر إلى لغة علمية، الأمر الذى يؤكد لنا بوضوح، تعثر النقد المعاصر فى سيره نحو استخدام مصطلحات علمية دقيقة. فمازالت مصطلحاته تخضع فى كثير من الحالات للتأثر بالنزعات الذاتية فى حين أن لغة العلم لغة كمية موضوعية. يضاف إلى ذلك مشكلة أخرى، تتعلق بطبيعة الظاهرة الأدبية، واختلافها عن الظاهرة الطبيعية أو الظاهرة الإنسانية فمن البديهى أن العلم بوجه عام ينهض على مجموعة من الحقائق العامة التى تستند إلى الملاحظة التجريبية. ومن البديهى أيضا أن صياغة القانون هى الغاية التى من أجلها ظهرت العلوم.

والنقد الأدبى – كما هو واضح – يود اليوم أن يتساوى بهذه العلوم، وأن يستعين بمناهجها للوصول إلى التعميمات او القوانين التى لو حاولنا التوصل إليها فى ميدان النقد ستواجهنا صعوبات عديدة. فإذا حاولنا مثلا أن نقنن لبعض الظواهر الأدبية بقصد الكشف عن الانماط أو الاطرادات التى تحدث فى داخلها لمحاولة صياغتها صياغة كمية للوصول إلى التعميمات أو صياغة القانون، نجد أن طبيعة الظاهرة الأدبية ذاتها تمتنع عن تحقيق هذه اللغة نظرا لأنها تتميز بالمرونة والتغيير والتعقد، بعكس الظاهرة الطبيعية التى تتميز بالثبات والبساطة وبالتالى يمكن ضبطها وعزلها عزلا تجريبيا، أما الظاهرة الأدبية فمن الخطأ منهجيا عزلها عن الظواهر التى كونتها والتى تفسرها وتضفى عليها معناها ومغزاها.